جورج إليوت

الأديبة الإنجليزية، التى تعتبر من أوائل مَنْ أدخلوا تفاصيل الحياة اليومية فى الأدب الروائى .

اختارت اسماً ذكورياً حيث أرادت أنْ تكون واثقة من أن تُؤخذ أعمالها مأخذ الجد، أو لأنَّها كانت تزهد عالم الشهرة كى لا يتطرق أحد لعلاقتها مع الفيلسوف اليهودى «جورج هنرى لويس» الذى كان متزوجاً!!

ولأنَّها رائدة المتمردات عن جدارة فقد رفضوا دفنها فى مقابر العظماء !!

«كل منا له جانبه الخاص الذى يبرع فيه ويُظهر خياله، لأنَّ تصوراتنا هى النقطة الأولى، وأصلٌ لكل أمنية» .

الميلاد .. وذكريات الطفولة :

ولدت «مارى آن إيفانس» Mary Ann (Marian) Evans التى اشتهرت أدبياً باسم «جورج إليوت» George Eliot فى 22 من نوفمبر عام 1819 فى بريطانيا. وهى الابنة الثالثة بين الأبناء إذ يكبرها أخوها «روبرت إيفانس» وأختها «كريستينا إيفانس» . ولها أيضاً أخ وأخت غير أشقاء من زواج سابق لأبيها .

أبدت فى الطفولة ذكاءً واضحاً، ونظراً لأهمية موقع والدها فى المدينة سُمح لها بالدخول إلى مكتبة المدينة ممَّا طوَّر قدرتها إلى حدٍ بعيد . وكان من الواضح فيما بعد تأثرها بالكتابات اليونانية، كما كان تأثرها بالدين كبيراً جداً حيث تلقت تعليمها فى المدرسة المعمدانية .

وفى عام 1836 م وهى فى عمر السابعة عشر توفيت أمُّها، فأخذت «جورج إليوت» على عاتقها مهمة رعاية البيت، لكنها أكملت تعليمها من خلال معلِّم خاص فى البيت.

جورج إليوت .. رائدة المتمردات !!

يمكننا أن نُطلق على «جورج إليوت» أنَّها رائدة المتمردات عن جدارة، فرغم الإعجاب بها وبكتبها وروايتها دفعت ثمناً باهظاً لتمرُّدها، وعاشت شبه عزلة لا تزور ولا تُزار.

بدأت رحلة التمرُّد وكالعادة فى سن الشباب وأول بوادرها على الكاتبة أنَّها امتنعت عن الذهاب إلى الكنيسة احتجاجاً عن ضيق أفق القساوسة، فقاطعها كل مَنْ حولها بمن فيهم الأب الذى أنفقت ثلاث سنوات من حياتها تمرضه بعناية الأمهات، ومات من دون أن يغفر لها أو يُحادثها بكلمة واحدة قبل موته.

وممَّا يذكر أيضاً فى كتاب «الرواية الإنجليزية»، تأليف الناقد «والتر آلن» أنَّها أصبحت ميثودية. ورغماً عن أنَّها كانت متدينة فى قرارة نفسها، فقد دفعتها أمانتها الفكرية إلى اللاأدرية (Agnosticism) (الاعتقاد بأنَّه لا يمكن معرفة شيء عن الله سبحانه وتعالى). حيث اهتمت بالأخلاق والسلوك القويم اهتماماً لا يقل قسوة عن اهتمام شبابها المنشق على الكنيسة الإنجليزية. وقد كتبت «جورج إليوت» فى روايتها «سيلاس مارنر» Silas Marener : «إن الصدفة المواتية هى إله كل البشر الذين يتبعون تدابيرهم الذاتية. بدلاً من الامتثال لناموس يؤمنون به .. إن عنصر الشر الذى تستهجنه تلك الديانة، هو التعاقب الرتيب الذى تثمر به البذرة محصولاً على شاكلتها». وكانت «جورج إليوت» تعتقد اعتقاداً متطرفاً بأن تصرفات البشر وفى المقام الأول شخصياتهم هى التى تُحدِّد ما إذا كانوا أخياراً أم أشراراً، وكانت عواقب تصرفاتهم تتسم بالقسوة.

«سبنسر» يهرب من حبّ «جورج إليوت» .. و«جورج هنرى لويس» يهرب مع «جورج إليوت» من أجل الحب !!

فى عام 1851 م قابلت «جورج إليوت» الفليسوف اليهودى «جورج هنرى لويس» الذى كان متزوجاً فى ذلك الوقت . وفى عام 1854م قررا أن يعيشا معاً فسافرا معاً إلى برلين، تاركاً بيته وعائلته من أجلها، وكانا تقريباً ثانى اثنين يعيشان معاً وعلنياً من دون زواج فى أوروبا فى القرن التاسع عشر، بعد التمرُّد الأول الذى كان على هذه الشاكلة للشنائى الشهير «شوبان» و «جورج صاند» .

لم يكن صديقها «جورج هنرى لويس» أول قصص حبها، فقصة الحب المبكرة الأهم كانت للفيلسوف «هربربت سبنسر» الذى لاحقته بشراسة، وكتبت له رسائل حب حارقة فهرب من حبها المدمِّر، وطلب فى وصيته ألا يتم الإعلان عن رسائلها الغرامية له إلاَّ بعد مائة عام على وفاته

الزواج الصدمة !!

مع أن «جورج إليوت» عاشت معظم عُمْرها مع الرجل الذى هربت معه، إلاَّ أنَّها لم تكتشف خيانته لها إلاَّ بعد رحيله، فقد توفى «جورج هنرى لويس» فى عام 1875م . لذا لم تجد أية صعوبة عاطفية أو أخلاقية فى استبداله على الفور برجل آخر . إنَّها بذلك لم تتوقف عن توجيه الصدمات لقرائها ومحبيها، لقد تعرَّفت على رجل أمريكى أصغر منها بعشرين عاماً اسمه «جون والتركروس» وتزوجته فى عام 1810 م لتعيش معه من دون خطيئة - حسب لغة العصر الفيكتورى - عاشت مع زوجها الجديد لمدة أربعة أشهر ثم رحلت بحزنها وتمرُّدها على مجتمع عاقبها ولم يغفر لها حتى بعد موتها!!

العمل فى الصحافة :

قبل وفاة والدها سافرت إلى سويسرا وبعد عودتها انتقلت لتعيش فى لندن وكانت

مصممة فى ذلك الوقت على أن تكون كاتبة وهناك عاشت فى منزل الناشر «جون تشابمان» الذى كان يملك صحيفة عملت فيها «جورج إليوت» كمحررة فى العام 1858م لمدة ثلاث سنوات، لكن كل كتاباتها كانت تنشر باسم «تشابمان».

عالم «جورج إليوت» الروائى :

رغم أن «جورج إليوت» اشتهرت كروائية فإنَّها لم تكتب الرواية إلاَّ بعد أن استقرت نسبياً مع صديقها الفيلسوف «جورج هنرى لويس»، فأول رواية لها «مشاهد من حياة الرهبنة» كتبتها ونشرتها وهى على مشارف الأربعين من عُمْرها.

أمَّا شهرتها فجاءتها عن طريق الترجمة، وبالتحديد بعد ترجمتها لكتاب ضخم بعنوان «حياة المسيح» The life of Jesus للمؤلِّف «دايفيد شتراوس» عام 1846م، وكتاب آخر بعنوان «جوهر المسيحية» The Essence of Christianity ، عن الألمانية التي كانت تتقنها مع عدة لغات أخرى.

رواية : آدم بيد :

نشرت «جورج إليوت» أول رواية كاملة باسمها المعروف فى عام 1859م بعنوان «آدم بيد» Adam Bead حققت الرواية نجاحاً مباشراً وفورياً لكن تلك الرواية أطلقت العديد من التكهنات حول هذا الكتاب الجديد، لكن فى النهاية وبعد فترة اعترفت «مارى آن» بأنَّها هى «جورج إليوت» وهذا الاعتراف كان له تأثير قوى على قرائها الذين صدموا بمعرفة تفاصيل حياتها الشخصية.

انتفعت «جورج إليوت» بخبرتها الواسعة بالناس وحياتهم فى وسط إنجلترا فى تسجيل أحداث هذه الرواية وصورت حياتهم فى شيئ من الفكاهة التى تعطف على مَنْ تصف دون أن تسخر منهم.

وقد لاحظت «جوان بنت» Jean Bennett فى كتابها الرائع «جورج إليوت: فكرها وفنها» George Eliot : Her Mind and Art الشكل العضوى

لروياتها، حلقة داخلية (جماعة صغيرة من الأفراد ساقطون فى عملية أخلاقية) تحيط بها حلقة خارجية (العالم الاجتماعى الذى يتحتم حل العماية داخل إطاره) . يبدو هذا واضحاً فى هذه الرواية التى تدور حول قرية كاملة وبناء اجتماعى كامل، فنحن نتحرَّر من قاعة الشريف، والإيبرشية، ومنزل المزرعة الذى يشغله فلاح مستأجر، وكوخ النجار، وتربطها جميعاً علاقة واضحة ببعضها البعض .

وخيال «جورج إليوت» فى هذه الرواية، لا تجمعه وحدة واحدة، فهي أكثر تحرُّراً بكثير فى معالجتها لشخصيات الحلقة الخارجية، إذ كانت اهتماماتها الكفرية والأخلاقية تغل يديها بقسوة فى معالجتها للشخصيات الرئيسة فى الحلقة الداخلية الصغيرة .

والقصة تُعبِّر عن سقوط «هتى سوريل» Hetty Sorrel وغواء «آرثر دونيثورن» Arthur Donnithorne لها الذى يتمخض عن تعاسة «آدم بيد» .

رواية : الطاحونة على نهر فلوس :

تبدأ أحداث الرواية عام 1799 م من قصة سمعتها المؤلِّفة من عمتها الميثودية عن زيارة قامت بها لفتاة جاهلة حكم عيها بالإعدام لقتلها وليدها الصغير، ولم يكن للرواية مثل هذا الأصل . وقد لا تكون رواية لسيرة ذاتية، ولكن البطلة «ماجى تليفر» Maggie Tulliver ترتبط بـ «جورج إليوت» بعلاقة وثيقة، فالواقع أن «ماجى» هى «مارى آن» عند ولادتها فى جوهرها . لقد أعطت هذه العلاقة الوثيقة بين المؤلِّفة وبطلتها دفئاً، لذا تستمد الرواية تأثرها وسحرها من هذا التطابق .

والكاتبة تصف طفولة «ماجى» على نحوٍ رائع وهذا ما يجعلنا نتقبَّل ولاءها لأخيها «توم» Tom الفظ والمتجبر .

«ماجى» مخطوبة ضمنياً لـ «فيليب»، ثم تقع فى حب «ستيفن جست» Stephen Guest ويستولى عيها تماماً . وهو مخطوب بدوره ضمنياً لابنة عمها «لوسى» Lucy و «ستيفن» كشخص سيء الخلق، يمثل جاذبية جنسية حتى لفتاة لها مثل هذا السمو الروحى والخلقى وهى «ماجى»، وتستمر الغواية، ولكن «جورج إليوت» بالاستسلام

لذلك الإغراء، بدلاً من أن تدع «ماجى» تحسم العملية الأخلاقية التى تجد نفسها فيها، وتتحمَّل عواقبها، اختارت الطريق السهل، ووضعت نهاية نمطية من ذخيرة القصص الخيالى الفيكتورى محل الحسم الحقيقى .

رواية : سيلاس مارنر :

رواية «سيلاس مارنر» Silas Marener هى قصة نساج من المنشقين، يخونه صديقه، ويتهم بالسرقة ويفقد الفتاة التى كان يزمع الزواج منها، وينفى إلى مقاطعة ريفية نائية ويسرق ذهبه ،غير أن عثوره على طفلة ذهبية الشعر وتبنيه لها يعود به إلى المشاركة الإنسانية . و «جورج إليوت» هى الروائية الوحيدة التى تستطيع النجاح فى معالجة مثل هذا الموضوع فى عصرها . وللموضوع سحر قصص الجنيات ورسوخ عالم خيالى مكتمل الخَلق . ويكاد المرء لا يعرف أيهما أجدر بالإعجاب : صدق مشاعر «جورج إليوت» أم مهارتها الأدبية الفائقة،

و«سيلاس مارنر» هو الشخصية الرئيسة فى الرواية، ولكن ظهوره فى الرواية لا يأخذ طابع الاستمرار أبداً . وتُعبِّر الأحاديث الرائعة التى تدور فى حانة «رينبو» والتى تشمل أجمل الصور التى رسمتها الكاتبة للشخصيات الريفية وأجمل فكاهاتها، عن معيار الحياة فى الرواية . ويظل «مارنر» دائماً على هامش هذه الحياة، وهو يظل بمفهوم ما هامشياً بالنسبة لنا حتى يعود فى النهاية ليتخذ مكانه مرة ثانية بين البشر .

رواية : فيلكس هولت الراديكالى (1) :

صدرت رواية «فيلكس هولت الراديكالى Flix Holt the Racical عام 1866م لم تنجح هذه الرواية بالدرجة الكافية نظراً للحبكة التى أثقلت «جورج إليوت» كاهلها بها . إن حبكة تقوم على التفصيلات الدقيقة للقانون جعلت الرواية عرضاً لحالة خاصة أكثر منها موضوعاً عاماً .

---

(1) الراديكالى : مصطلح يعنى الشخص الحر المتطرف .

والإثارة فى الرواية متقطعة، ولكنها عند الإحساس بها، إثارة حقيقية. أعظم شخصيات الرواية هى «مسز ترانسوم» Mrs. Transome حيث كانت قد تردت فى مهاوى الزلل قبل أن تبدأ أحداث الكتاب بزمن طويل . وهى تمثل أمامنا فى الحال وعلى نحوٍ مسرحى كتجسيد للحياة الضائعة، التى ضاعات لأنَّها أسلمت نفسها لخطيئة لا تستطيع كشف عواقبها، وتُشكِّل معرفتها بها كل وجودها، والندم الخفى يهرؤها كالسرطان . وهى باستثناء «جوندولن هارلث» Gwendolen Harleth أقوى رموز الكاتبة لكآبة ومرارة اليأس والإحساس بالذنب الذى يأكل صاحبه .

رواية : مدلمارش :

رواية «مدلمارش» صدرت فى عام 1872م والكاتبة تخلق فى هذه الرواية مجتمعاً إقليمياً أوسع مدى من أى مجتمع خلقته من قبل، مجتمع «كوفنترى» وضواحيها الريفية فى السنوات السابقة تماماً لقانون الإصلاح الأول عام 1832م . وهى أكثر رواياتها شمولاً وأكثرها نجاحاً . فقد استطاعت فيها وهو ما لم تستطعه فى مكان آخر إلا فى نطاق بالغ الضيق فى رواية «سيلاس مارنر» أن توحد كل أجزائها فى كل و«مدلمارش» مؤلَّف جميل، وذلك بالرغم من حقيقة أنَّها مبنية على أربع حبكات رئيسة : قصة «دوروثا بورك» Dorothea Brooke، وقصة زواج «ليد جات» وسيرة «مارى جارث» وسقوط «بولستروود» bulstrode صاحب المصرف .

وترتبط كل هذه الحبكات بعضها ببعض من دون عناء . ومع ذلك فإن حبكتين من بين الحبكات تدوران حول «دوروثا» و «ليدجات» أكثر أهمية من الآخرين، بمعنى أنَّه لا يمكن تصور الرواية بدونها .

رواية : دانييل دوروندا :

نشرت «جورج إليوت» آخر رواية لها عام 1873م بعنوان «دانييل دوروندا»

Daniel Deronda وقد عرضها التليفزيون البريطانى عام 2002م . وتعتبر هذه الرواية أشهر أعمالها، وهى التى سبقت بها الكاتب الأمريكى «إليكس هيلى» فى سلسلة روايات البحث عن الجذور . وهى أيضاً الرواية ذاتها التى أثارت الشكوك حول أصولها اليهودية التى أخفتها أسرتها بعناية عن المجتمع المسيحى المحافظ الذى عاشت في وسطه .

بصمة «جورج إليوت» الإبداعية :

ميزة «جورج إليوت» إنها من أوائل مَنْ أدخلوا التفاصيل اليومية فى الأدب الروائى، فقبلها وقبل الجيل الذى تلاها كان الأبطال والبطلات جبابرة ومميزين وبلون واحد «أسود» أو «أبيض» ومعها ومع الجيل الموازى لها فى فرنسا بدأت التفاصيل الإنسانية بكدرها ومللها وبساطتها وأفراحها وأحزانها تدخل إلى المشهد الأدبى لتزيح الشخصيات البطولية والما فوق واقعية عن المسرح، وتؤسس لأدب جديد مادته نبض الشارع وحياة الناس البسطاء .

الرحيل :

رحلت «جورج إليوت» فى 22 من ديسمبر عام 1880 م عن عُمْر يناهز 61 عاماً، ولم تدفن فى مقابر العظماء عقاباً لها على تمرُّدها !! مع أنَّها كانت أشهر كُتَّاب وكاتبات عصرها، ودفنت شمال لندن فى مقبرة «هاى جيت» حيث يرقد «كارل ماركس» .